الباب الثامن عشر: في القضاء، وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول

الفصل الأول: في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

قال الله تعالى: ﴿يا داودُ إنَّا جَعَلْناك خليفةً في الأرض فَاحْكُمْ بين الناس بالحقِّ ولا تتَّبِعِ الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[1] وقال تعالى: ﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط﴾[2] وقال تعالى: ﴿ومن لم يحكُمْ بما أنزلَ الله فأولئك هُمُ الفاسِقُون﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه فلم يقضِ بينهما بالحق، فعليه لعنة الله». وعن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما فسلم عليه فلم يرد عليه. فقال عمر لعبد الرحمٰن بن عوف: أخاف أن يكون وجد عليّ[4] خليفة رسول الله ﷺ. فكلم عبد الرحمٰن أبا بكر فقال: أتاني، وبين يديّ خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سائلي عنهما، وعمّا قالا وقلت. وادَّعى رجل على عليّ عند عمر رضي الله عنهما وعليّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فتناظرا. وانصرف الرجل ورجع عليّ إلى مجلسه، فتبين لعمر التغير في وجه علي. فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيراً أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنيتني بحضرة خصمي، هلاّ قلت يا علي قُمْ فاجلس مع خصمك. فأخذ عمر برأس علي رضي الله عنهما فقبله بين عينيه ثم قال: بأبي أنتم بكم هدانا الله، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور. وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحاً. وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب. فقال: الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليّ من الضرب بمقامع[5] الحديد في الآخرة. وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكشف عن باب مغلق، فظنناه كنزاً فكتبنا إلى أبي بكر رضي

---

(١) سورة: صّ، الآية: ٢٦.
(٢) سورة: صّ، الآية: ٢٢.
(٣) سورة: المائدة، الآية: ٤٧.
(٤) وجد علي: غضب.
(٥) مقامع: مفردها مقمعة: عمود تتخذ للضرب.

الله عنه فكتب إلينا: لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب، وفي يده اليمني لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خـــانَ الأميـــرُ وكـــاتبـــاه ... وقـاضـي الأرضِ داهـنَ[١] فـي القضـاء
فـــويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ ... لقـاضـي الأرضِ مـن قـاضـي السمـاءِ

وإذا عند رأسه سيف، أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه: هذا سيف عاد بن إرم. عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضي ما لم يَجُرْ، فإذا جار، برىء الله منه، ولزمه الشيطان». وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم، فما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللّهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك فقبض[٢]. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة». وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله من مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضياً لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضياً. وقيل: أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان أمير البصرة وقاضياً فيها، وكان يقول: إن الرجلين يتقدمان إليّ، فأجد أحدهما أخفَّ على قلبي من الآخر فأقضي له.

وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه، فقال له يحيى: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بيّنة[٣] فأراد أن يحلف المأمون، فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إني تناولتك من جهة القدرة، ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطاءه. وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل. فقال أبو يوسف: قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع يا غلام، ائتني بعمرو بن أبي عمرو النخاس، فإنه إن قدم عليّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين. ثم أن الحاجب أخذه بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه، فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له: لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم، فإن ذلك عمودُ السلطان، وقوام الأديان. والله تعالى أعلم. وقال الأبرش العكلي يمدح بعض القضاة:

رفضـــتَ وعطلـــت الحكـــومـــةَ قبلـــه ... فـــي آخـــريـــن وملَّهـــا روّاضهـــا[٤]
حتـــى إذا مـــا قـــام ألـــفٌ بينهـــا ... بـــالحـــقِّ حتـــى جمعـــت أوفـــاضهـــا[٥]

---

(١) داهن: جامَل.
(٢) فقبض: أي توفي.
(٣) بيّنة: دليل وبرهان.
(٤) روّاضها: أي سئمها مدبروها.
(٥) الأوفاض: ما تفرق واختلط.

وفي ضد ذلك قول بعضهم:

أبكي وأندبُ ملَّة الإسلام ... إذ صرت تقعد مقعد الحكام
إن الحوادثَ ما علمتَ كثيرة ... وأراك بعضَ حوادثِ الأيام[١]

وتقدمت امرأة إلى قاض، فقال لها: جاء معك شهودك؟ فسكتت. فقال كاتبه: إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك؟ قالت: نعم هلاّ قلت مثل ما قال كاتبك، كبر سنك، وقلّ عقلك، وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك، ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك. وقيل: المضروب بهم المثل في الجهل، وتحريف الأحكام قاضي منى، وقاضي كسكر، وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحاق الصابي:

يا رب علج[٢] أعلج ... مثل البعير الأهوج
رأيته مطلعاً ... خلف باب مرتج[٣]
وخلفه عذيبة ... تذهب طوراً وتجي
فقلتُ مَنْ هذا ترى ... فقيل قاضي أيدجِ

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري:

رأيتُ رأساً كَدِبَّهْ ... ولحية كالمذبَّهْ[٤]
فقلتْ مَنْ أنت قل لي ... فقال قاضي شلبَّهْ

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادعت عنده فقضى لها، هذيل الأشجعي:

فتنَ الشعبي لما ... رَفَعَ الطرفُ إليها
فتنَتْه ببنانٍ ... كيف لو رأى معصَمَيْها
ومشَتْ مشياً رويداً ... ثم هَزَّتْ منكبَيْها
فقضى جوراً على الخصـ ... ـم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطاً.

وحكى ابن أبي ليلى قال: انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول: فتن الشعبي لما، وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقَّنها الشعبي وقال رفع الطرف إليها. ثم قال: أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق. وأنشد بعضهم في أمين الحكم:

تتماوتنَّ إذا مشيتَ تخشُّعاً ... حتى تصيب وديعةً ليتيمِ

---

(١) حوادث الأيام: نوازلها.
(٢) العِلج: الغريب.
(٣) مرتج: باب مغلق بإحكام.
(٤) المذبَّة: طاردة الذباب.

الفصل الثاني: في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون

أما الرشوة فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تولوا اليهود، ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا، ولا يحل في دين الله الرشا. قال الشهيدي: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم. وفي نوابغ الحكم أن البراطيل[١] تنصر الأباطيل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من شفع شفاعة ليرد بها حقاً، أو يدفع بها ظلماً فأهدي له فقبل، فذلك السحت[٢] فقيل له: ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم. قال: الآخذ على الحكم كفر، وانشد المبرد رحمه الله تعالى:

وكنتُ إذا خاصمتُ خصماً كبتهُ[٣] على الوجه حتى خاصَمَتْني الدارهمُ
فلما تنازعنا الحكومةَ غُلِّبَتْ عليّ وقالت قُمْ فإنك ظالمُ

وأما الدَّيْن وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدّين وقهر الرجال: فقد روي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من داين بدَيْن وفي نفسه وفاؤه، ثم مات تجاوز الله عنه وأوصى غريمه بما شاء. ومن تداين بدَيْن وليس في نفسه وفاؤه، ثم مات اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة» رواه الحاكم وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتي بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن دَيْنه فإن قيل عليه دَيْن كفَّ عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دَيْن صلى عليه. فأتي بجنازة فلما قام ليكبر سأل ﷺ: هل على صاحبكم من دَيْن؟ فقالوا ديناران يا رسول الله. فعدل النبي ﷺ عنه، وقال: صلوا على صاحبكم. فقال علي كرم الله وجهه: هما عليّ يا رسول الله وهو بريء منهما. فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه، ثم قال لعلي رضي الله عنه جزاك الله عنه خيراً، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك، أنه ليس من ميت يموت وعليه دَيْن إلا ومرتهن بدينه، ومن فكَّ رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة.

وقال بعض الحكماء: الدَّيْن همّ بالليل، وذلٌّ بالنهار، وهو غلّ جعله الله في أرضه، فإذا أراد الله أن يذلّ عبداً جعله طوقاً في عنقه. وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى دَيْناً له على رجل فقالوا: خرج إلى الغزو. فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضي دَيْنه» وعن الزهري قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصلي على أحد عليه دَيْن، ثم قال بعد، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من مات وعليه دَيْن فعليّ قضاؤه ثم صلى عليهم. وعن جابر: لا هَمَّ إلا همُّ الدين، ولا وَجَعَ إلا وجعُ العين. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تزوج امرأة بصداق ينوي أن لا يؤديه إليها فهو زانٍ، ومن استدان دَيْناً أن لا يقضيه، فهو سارق». وقال حبيب بن ثابت: ما احتجت إلى شيء استقرضه إلا استقرضته من نفسي. أراد أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة. ونظيره قول القائل:

وإذا غلى شيء عليّ تركتُهُ فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

---

(١) البراطيل: الرشاوى.
(٢) السحت: الحرام.
(٣) كبته: رميته على الأرض.

وقال بعضهم أيضاً:

لقد كان القريضُ سميرَ قلبي فألْهتني القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مرّة التميمي:

إني لأقضي الدَّيْن بعدما يرى طالبي بالدَّيْنِ أن لست قاضياً

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدَّيْنَ بالدَّيْنَ لم يكن قضاءً ولكن ذاك غُرْمٌ على غرمِ

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال: حباً وكرامة، لكن سَكِّنْ قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه. فقال: يا أبا سعيد أما تثق بي؟ قال: بلى وإن خليل الله[١] كان واثقاً بربه، وقد قال له: ﴿ولكنْ ليطمئِنْ قلبي﴾[٢].

اللّهم أوفِ عنّا دَيْن الدنيا بالميسرة ودَيْن الآخرة بالمغفرة برحمتك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث: في ذكر القصاص، والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء في ذكر القصاص والمتصوّفة، فقد روي عن خباب بن الأرت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا». وروي أن كعباً كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصص. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لم يقصَّ أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة. وقال ابن المبارك: سألت الثوري: من الناس؟ قال: العلماء. قال: فمن الأشراف؟ قال: المتَّقُون. قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قلت: من الغوغاء؟ قال: القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام. قلت: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة. قيل: وهب رجل لقاض خاتماً بلا فص. فقال: وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلي: الصعقة[٣] التي عند القصاص من الشيطان. وقيل لعائشة رضي الله عنها: إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا. فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال. وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره، فإن صعقوا فهو كما قالوا. كان بمرو قاضٍ يبكي بمواعظه فإذا أطال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبوراً صغيراً فيحركه، ويقول مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفي بعني جبتك. فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة. فقال أكلة رقصة[٤] وعظ عيسى عليه السلام بني إسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب فقال: ما ذنب الثياب أقبلوا على القلوب فعاتبوها.

---

(١) خليل الله: سيدنا إبراهيم عليه السلام.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٠.
(٣) الصعقة: شدة التأثر.
(٤) رقصة: كثيرو الأكل والرقص.

وأما ما جاء في الرياء، فقد قال الله تعالى: ﴿يراءون الناسَ ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾[1] وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأن تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين». وقيل: لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه فهو من أقبح الرياء. وقيل: كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله، فليس من الله في شيء. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء». وقيل: بينما عابد يمشي ومعه غمامة[2] على رأسه تظله فجاء رجل يريد أن يستظل معه فمنعه، وقال: إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظللني، فقال له الرجل: قد علم الناس أني لست ممن تظله الغمامة فحولها الله تعالى إلى ذلك الرجل. وقال عبد الأعلى السلمي يوماً: الناس يزعمون أني مراء، وكنت أمس والله صائماً، ولا أخبرت بذلك أحداً.

اللهم أصلح فساد قلوبنا واستر فضائحنا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٤٢.

(٢) الغمامة: السحابة.

obeikandl.com